يبدو الوقت ثقيلاً. وتمطّ حصةُ الدرس الخصوصي نفسَها إلى ساعتين أو أكثر. بدت المهمةُ ثقيلةً في أيامها الأولى، إلا أنه باكتشاف موطن قبيلة الخنافس بدأ الوقتُ ممتعاً والمكانُ مسلياً.

كان يتسلى بالرسم على عكّازه الخشبي، يرسم وجوهاً وطيوراً وطائراتٍ وجبالاً وسحباً، ثم يلمح مدخل البناية، ويعود إلى مراقبة موطن الخنافس.

بدّدَ ظهورُ الخنافس الانتظارَ المملّ، وهي تتدافع من الشق الذي يفصل حَجَرَي الرصيف، متجهةً إلى ثقبٍ تغطيه قطعةُ أسفلتٍ منتَزَعةٌ من الطريق وملقاةٌ جانباً.

يتأمل الكائنَ الغريب. يتهيّب سواده. يقارنه بالسّحالي والفئرانِ والأَرَضِ فَتَكْسبُ الخنافسُ مقارنةَ اللون.

تحولتِ المراقبةُ إلى انقضاضٍ يرشق إبرة في مؤخرة ساقه الخشبية.

ويسدِّد السنَّ المدبَّبَ إلى المنطقة الفاصلة بين الرقبة وصدفة الظهر. تترنح الخنفساءُ وكأنها بوغتتْ بالهجوم. ينتزع الإبرةَ ليمدَّها مرةً ومرتين وثلاثاً، حتى تُشَلّ الخنفساءُ وتستسلم. يراقب دمها الأسود. تلهث أنفاسُهُ، وتملأه النشوة، ويبدو مقاتلاً مغواراً وسيداً مهيباً، وقد دان الميدانُ لسيطرته.

يستدير إلى موكب الخنافس الذي بدأ يتقدم في ثبات. ويختار فريسةً أخرى، يناورها بساقه ويقلبها على ظهرها. ويحاول أن يرعبها قبل أن يقوم بهجومه الضاري، ولا يهدأ قبل أن يغطِّيها الدمُ الأسود.

يُدْهشه أنّ قبيلة الخنافس لا تنقرض بعد كل هذا العدد من القتلى. ويمضي في طابوره المعتاد متوجهاً من الشق إلى الثقب، في خطوات ثابتة، رغم ضحاياه وقتلاه.

في هذه الأثناء تكون البنت التي دلفتْ من مدخل البناية قد استقلّتِ المصعدَ، وتحرص أن تكون بمفردها داخل المصعد.

تُوقف المصعدَ بين طابقين فتنزع ثوبها المدرسيَّ، وتُخرج فستاناً ملوناً من حقيبتها فترتديه، وتدسّ ثوبها المدرسيَّ في الحقيبة. تهبط بالمصعد ثانية وتتجه إلى باب البناية الخلفي.

تسير وتستدير وتنحرف يميناً ويساراً، قبل أن تبتلعها البنايةُ البنفسجيةُ الواجهةِ المتوسطةُ العمر في الحي المجاور.

تصعد على الدرج إلى الطابق الثاني. تضغط جرساً. يفتح البابَ المهندسُ الذي يقطن وحيداً. تنفذ رائحةُ عطره إلى أنفها قبل أن تستسلم إلى ذراعيه ويسحبها إلى الفراش. عندما تعود إلى مصعد البناية الضخمة تبدِّل ملابسها في اتجاه عكسي. وتخرج من مدخل البناية الضخمة في خطى واثقة.

- انتهيتُ. هيّا بنا.

يفيق الولد من تأملاته. ينظر إليها بحنان، ويلتقط إبرته من طرف ساقه الخشبية المدببة ويمسحها بقطنة مبللة ثم يخفيها في جيبه ويتوكأ على عكّازه محاولاً اللحاقَ بها.

- درس كيمياء.

- لا.. رياضيات.

يصلان أخيراً المنزلَ. تلتقط أمهما الناحلةُ أنفاسها وتسبل عينيها علامةَ الاطمئنان لوصولهما.

تختفي شقيقته في الحمام مستسلمةً للرذاذ المتطاير من الدشّ، وتحرص على أن يغطي الماء كلَّ بوصةٍ في جسمها. وفي هذا الوقت يكون الولدُ قد التقط قلماً، وشَطَبَ رقماً مكتوباً على الحائط، ليكتب رقماً جديداً بعد أن أضاف إليه عددَ الخنافس التي قتلها اليوم.

القاهرة

أنا وحي الأمجاد ومسعودة

سهيلة داوود سلمان

كدوّامة تدور وتدور، هذا الدويّ في الرأس لم يعد محتملاً، يخترق أذني، ينتهك ليلي، ويقتحم نهاري. أكاد أفقد صوابي، وأنا أسأل شريك حياتي الذي شاطرني العيش في هذا البيت الذي تعاونّا على إنشائه في هذا الحي الحديث الذي يطلقون عليه «حيّ الأمجاد».. أسأله إنْ كان يسمع ما أسمع أو يشعر بالذي أشعر به، فيقلب لي شفتيه غيرَ عابئ بعذابي، ويهزّ رأسه وفي نظرته شيء من الشفقة والشك وهو ينصحني قائلاً: «شوفي طبيب». فلا أملك إلا السكوت.

أعرف أنّ شريك حياتي ضعيف السمع قليلاً، أي أنّ الأصوات الواطئة والمكتومة من الدرجة الأولى والثانية لا تصله على نحو جيد. ولم يكن ذلك بسبب خريف العمر الذي أدركه على غفلة من الزمن، بل بسبب عطب أصابَ إحدى أذنيه قبل ما يقارب العقدين أثناء انخراطه التطوّعي فيما سُمي آنذاك بالجيش الشعبي.

لم نكن يومذاك في حالة حرب وليس ثمة ما يشير إلى أنّ الوطن قد يتعرض لخطر. كان الرخاء يعمّ البلاد من أقصاها إلى أقصاها. إلا أنّ الشعور الوطني العارم الذي زَرَعَتْه عقودُ الاستعمار في النفوس كان لا يزال خصباً بما يكفي ليدفع الشباب بل والشيوخَ إلى التّحسُّب خوفاً من وقوع خطر ما. كان قد تجاوز سنّ الشباب، في الخامسة والأربعين، من

عمره، يميل إلى البدانة، غليظ العظم، ثقيل الخطو بطبعه، ولم يُعرف عنه أنّه مارس نشاطاً رياضياً من قبل. ومعروف أنّ من ينخرطون في هذا المضمار يجب أن يكونوا من اليافعين ممن لا تتجاوز أعمارهم العشرين... وكم نصحه أصدقاؤهُ بأن يُعْرض عن هذا الأمر قائلين:

«أنت تركب الصعاب دون مبرر وتدفع بنفسكَ إلى التهلكة، إذ كيف ستتدبر أمرك وأنت تتسلق الأسوار العالية، وتخترق الأسلاك الشائكة، وتخوض المستنقعات؟ وكيف ستقضي الليالي في الفيافي تصطاد الأفاعي؛ تسلخها وتشويها لتأكلها؟ وكيف ستنقضّ على الذئاب والوحوش وتهوي عليها بأسنانك، ونحن نعرفك تعفّ نفسُك عن الكثير من المأكولات العادية؟ وكيف وكيف؟!».

لكنه لم يأبه لكلامهم، وكان يستهزئ بهم قائلاً: «إن العقيدة تصنع المعجزات».

بعد أسابيع من التدريبات الشاقة المُضنية التي كان يعود منها مُكسّراً منهوكاً، جاء اليوم الذي ذهب فيه عند الفجر، وحل الظلام، ثم انتصف الليل ولم يعد. لم يبق أحدٌ من زملائه ممن أعرفهم لم أوقظه من نومه لأسأله عنه، فكان جوابهم جميعاً أنهم لا علم لهم لأنه ليس في فصيلهم. وقبل أن ينجلي الليل ويتبين خيطُهُ الأبيض من خيطه الأسود دخل يجرجر نفسه، غريباً بهيأة غريبة، وكأنّه آتٍ من كوكبٍ بعيدٍ، متّسخاً ملطّخاً بالطين مغموساً به من رأسه حتى حذائه، ومن جسده وثيابه تنبعث رائحة كريهة.

ـ «يا ويلي».. صرختُ مرتعبةً. «ماذا جرى لك»؟

بصوت متهدج واهنٍ أشار طالباً المساعدة في خلع ثيابه الملتصقة بجسده ليستحم. رأيت خيطاً من الدم قد سال من أذنه اليمنى واتخذ طريقه متخثّراً فوق صفحة خده الموحل. انهلع قلبي:

ـ أهي رصاصة طائشة أصابتك؟! تكلّمْ، لِمَ أنت صامت؟

قال بصوت يكاد لا يُسمع:

ـ رصاص العريف المدرِّب لاحقنا دون هوادة ونحن نخوض مستنقعاً مليئاً بالحيوانات النافقة، نزحف على بطوننا في الظلمة، وهو يستعجلنا الوصولَ إلى الهدف، عبر الأسلاك الشائكة.

ـ وأصابك؟؟ صرختُ.

قال: لا لا. لا تفزعي. إنه رصاص خُلَّب، ولكني شعرتُ به يخترق رأسي وآذني على مدى ساعة أو أكثر. أرجوك لا تطرحي مزيداً من الأسئلة، فأنا لا أسمعك جيداً. كما أنّ الألَم في أذني يشتدّ، وكأن سهماً اخترقها. ساعديني فقط..

ثم ظهر أنّ طبلة أذنه اليمنى قد تمزّقت، وقال الأخصائي إنّ الزمن كفيل بلأمها. ومنذ ذلك الحين وأنا استخدم نبرات صوتي العالية عند التحدث إليه، حتى صارت عادةً بتُّ أستخدمها دون أن أعي. وذات مرة نبهتني أمي إلى ذلك قائلةً باستهجان: «لماذا ترفعين صوتك على هذا النحو وأنت تتحدثين؟ هل تحسبين الناسَ صُمّاً؟». فشرحتُ لها الأمر الذي تعرفه هي قبل غيرها.. فقالت وهي تتحسر وتهزّ برأسها:

ـ آخ... لو لم يحدث له ذلك من أجل الوطن الغالي لرفعتُ عقيرتي بالدعاء عليهم...

لقد أسهبتُ أكثر مما يجب في الحديث عن هذا الأمر الذي حدث قبل ما يقارب العقدين من الزمان.. ولْنَعُدِ الآن إلى حكايتي وما يجري لي منذ شهور. إذ بات الأمر يقلقني بعد أن سمعتُ مصادفةً من إحدى الإذاعات الأجنبية، التي أواظِب على سماعها، برنامجاً عن انفصام العقل وأعراضه الجانبية، وأنّ الذي يُبتلى به قد يَسْمع أصواتاً شبيهةً بالأصوات التي يُحدثها جهاز الراديو. وبدأتُ أتوجّس بأن ما يحدث لي إنْ هو إلا بداية لهذا المرض. وهكذا صرتُ أفتح جهاز الراديو وأديره عشوائياً لأميِّز الأصوات التي تشبه تلك التي أسمعها وتدور في الجو من حولي. سألتُ بعض المقربين إنْ كانوا قد لاحظوا عليّ بعض التصرفات الغريبة أو الشاذة التي تدل على إصابتي بلوثة من لوثات الشيزوفرينيا. وكان كلُّ مَنْ أسأله يضحك مني ويؤكد سلامتي. سألتُ أخي وحلَّفْتُهُ بكل ما هو غالٍ لديه بأن يُصْدِقني ويصارحني.. قال متندراً: «اطمئني، مريض العقل لا يفكر كما تفكرين ولا يقلق على سلامة عقله لأنه يظن نفسه أعقل العقلاء وأحكم الحكماء. كل الناس يكونون على خطإ إلا هو..». ونصحني باستشارة أخصائيّ في الأذن لأنه يعتقد أنّ هذا يَحْدث جرّاء التهاب الأذن الوسطى، بل أخذني بنفسه إلى أخصّائي في الأذن يعرفه. وفعلاً قال هذا بأني أعاني تخلخلاً في سائل الأذن الوسطى نتيجةً للالتهاب، ووصف لي بعض المضادّات الحيوية، تناولتُها اسبوعين حتى أنهكتْ قواي دون أن يطرأ أيُّ تحسن، بل بالعكس شعرت أنّ الدويّ ازداد حدةً وأنّ شدته تكون في الصباح الباكر... وقررتُ في سري أن أستشير أخصائياً في الأمراض النفسية والعصبية. وشرعتُ في الاستفسار عن الطبيب المناسب الماهر. وبينما أنا في غمرة محنتي هذه التي كادت تشلّ حياتي اليومية إذ التقيتُ مسعودة.

*

لا أدري كيف أتحدث عن مسعودة ولا بأيّ طريقة

أصفها؟!

أأقول إنها صديقتي؟ لا. فأنا وإيّاها لا نلتقي إلا بالمصادفات. كما لا أستطيع أن أدعوها بالزميلة، لأنّ للزمالة قوانينها هي الأخرى. فماذا إذن أسمّي علاقتنا؟ معرفة؟! هذه أيضاً كلمة مخلخلة لا تفي بالغرض. كل ما أستطيع قوله إنني أكنّ لهذه الإنسانة وداً من نوع خاص ومتميز، فهي عندي في حكم الحاضرة الغائبة دوماً.. حين نلتقي، تهفو كل واحدةٍ إلى الأخرى كأحب الناس إليها، رغم اختلاف مشاربنا. فأنا ومسعودة كمن يقف على ضفتيْ نهرٍ عريض ومتسع: هي من شمال أفريقية، من الجزائر ذاتِ الطبيعة الخلاّبة والجوِّ الرابع والمليون ونصف المليون شهيد. وأنا المشرقية منشأً وهوىً ومن بلاد الرافدين ذاتِ الجو القارّي المتقلّب المتعِب الذي ينعكس أثرُهُ على ناسه ذوي الطّباع الحادة والأمزجة المتقلّبة؛ يحبونَكَ بالسرعة التي يكرهونك فيها. والأهم في مسعودة أنها تمتلك جناحين تحلّق بهما متى شاءت وكيفما أرادت.. لتمارس رحلة الشتاء والصيف؛ فمرة تطير إلى فرنسا وأخرى إلى سويسرا وثالثة إلى «ماربيا» الإسبانية، وتعود ببشرة برونزية لامعة ونفس متجددة. أما أنا فجناحاي مقصوصان.. ورغم ولعي بالحلّ والترحال فقد حُرِمتُ السفر والطيران عقداً كاملاً من عمري بسبب دخولنا حرباً ضروساً مع الأقربين من جيراننا. وها هو عقد آخر يكاد ينقضي بسبب حصارٍ لاأخلاقي ولامنطقي ينخر في الروح قبل البدن..

ما أردتُ قوله إني لا أعرف مسعودة تلك المعرفةَ التي تجعلني أضعها في الصورة التي تستحقها من مشاعري، لكني سأتوقف عند محطات طريفة في علاقتي بها:

*

في عقد السبعينات، حين كانت دماءُ الشباب ساخنةً تجري في عروقنا حاملةً مشاعرَ وطنية عارمة، رحل بعضُ المدرِّسين والأساتذة ـ كما يرحل الجنود إلى الجبهة ـ للاشتراك في تعريب الجزائر وملء الفراغ بعد خروج الفرنسيين منها. كنتُ من بين هؤلاء الجنود المجهولين. وفي القسم الداخلي من أحد المعاهد الذي خُصِّص لإقامتنا المؤقتة قبل أن نُوَزّع على مدارس القطر، التقيتُ مسعودة أوّل مرة. كانت ضمن الوفد الذي جاء لاستقبال الموفدين ولتحيتهم والوقوف على احتياجاتهم. وكانت، ببشاشتها ودماثة خلقها وهدوئها المتميز، تُشعرك بأنك لست غريباً وأنّ كل شيء سيكون سهلاً ميسراً. كنت أراها كل يوم مرتين، وسرعان ما ألِفْتُها.. ثم عادتْ هي إلى مدينتها وهران، والتحقتُ أنا بأحد المعاهد في العاصمة، ولم أعد ألتقيها بعد ذلك حتى حلّت عطلةُ العيد.

في أول يوم بعد انتهاء العطلة ـ ولم تكن الدراسة قد انتظمتْ بعدُ ـ احتوتنا باحةُ المدرسة التي تطلّ على سفح جبل مخضوضر تظلله أشجار الصنوبر وتعبق برائحته. كانت مسعودة قد جاءت بصحبة قريبة لها من الزميلات بعد أن علمتْ منها أنني أعمل في المعهد الذي تُدرِّس فيه. كان لقائي بها ساخناً، وكأني افترقتُ عن صديقة ألفتها منذ الأزل. وفي تلك الفترة كانت الغربة قد علمتني عادة التدخين، فأخرجتُ من حقيبتي علبة السجائر وتناولتُ واحدة أشعلتها، بينما كانت زميلاتي الأخريات قد دخلن في أحاديث نصفها بالفرنسيّة والنصف الآخر بلهجتهن المحلية التي لم أكن بعد قد أتقنتُ فهمها. وما إن هممتُ بارتشاف أول نفسٍ من الدخان حتى لكزتني الزميلة التي كانت تجلس عن يميني لكزةً أجفلتني وهي تستعجلني إطفاءها قائلةً: «احذري، المكان محصور».

وضعتُ السيجارة في المنفضة وأنا أسحق رأسها بطرف إبهامي دون أن أسأل عن السبب. وحين رأت مسعودة حيرتي قالت بصوتها الهادئ وهي تبتسم:

ـ «بعضهم يُعِدّ التدخين من المنكرات التي تسيء إلى سمعة المرأة».

ـ «ولكني رأيت الكثيرات يدخنّ، وهنا بالذات»، قلت لها.

قالت مسعودة من بين شفتيها: «لكنْ بعيداً عن أعين الرجال». ثم أردفتْ:

ـ ألم تسمعي بالنفاق؟ هوذا النفاق الاجتماعي!».

في هذه الأثناء، قدِمَتْ زميلتنا «مليكة». أقبلتْ نحونا بحضورها المرح فأحدثتْ بين الحاضرات ضجةً. وبعد أن عانقتِ الجميعَ وقبلتهنّ دون استثناء، بمن فيهنّ مسعودة التي تعرفتْ إليها على التو، أحطن بها بمحبة وتولينها بالأسئلة. كانت أسئلتهنّ فيها بعضُ الخصوصية، وكانت تجيب على بعضها، وتحجم عن الإجابة، مستعيضةً بالضحكات، عن بعضها الآخر وهي ترمقهن بنظرات لومٍ وزجر. أدركتُ مما يدور حولي أنّ زميلتنا هذه كانت تقضي شهراً من العسل؛ فقد تغيبتْ قبل عطلة العيد بأيام. بادرتُها على الفور بلهجة اعتذار:

ـ مبروك، لم أكن أعرف. لم يخبرني أحد أنها كانت إجازة لغرض الزواج.

ضحكتْ مليكة وشاركتها الأخرياتُ وهي تفرد أصابع كفّيْها مقلوبةً أمام وجهي وتقول:

ـ تطلعي، هل ترين خاتم زواجٍ في أيّ من أصابعي؟!

قلتُ، وندمتُ في ما بعد لسذاجتي:

ـ ماذا إذن؟! ألم تحدِّثيني عن الرحلة السعيدة، والفندق في قمة الجبل، والانسجام.. و.. و..؟؟

قالت مليكة:

ـ ما زلنا صديقين، لم يَحن الوقت بعدُ للارتباط رسمياً، في الوقت الحاضر في الأقل.

وهنا قاطعتْها مسعودة قائلةً بشيء من الجدية:

ـ وتسافرين بصحبته!؟ ووحدكما؟!

قالت مليكة بشيء من الاستنكار:

ـ أجل، وحدنا، وماذا في ذلك؟! وهل تريدينني أن أربط حياتي بإنسان قبل أن أعرف خيره من شره؟! أهذا من العدل؟! وأردفتْ مع ضحكةٍ مرحةٍ قائلةً:

ـ «أنتم أهل وهران، متخلفون».

وتعالت ضحكات الأخريات وهن يتطلعن نحو مسعودة التي كانت تضحك بدورها. ووجدتُني ألتفتُ نحو المنفضة أمدّ يدي إلى السيجارة ألتقطها وأسوِّي رأسها الملتوي، الذي سحقته، فأعيد إشعاله. وكانت عينا مسعودة تراقبانني. غمزتُ لها وغمزتْ لي. بعد قليل نهضنا، فأخذتُ بيد مسعودة ودعوتُها إلى الغداء وأنا أقول:

ـ «أنتِ ضيفتي لهذا اليوم. اختاري المطعم الذي ترتأينه، فأنا ما زلت أجهل دروب الجزائر».

قادتني إلى مطعم شعبي على ساحل البحر، فإذا هو عبارة عن قبو فسيح مكتظّ يختص بتقديم الأسماك على أنواعها. ومن ثمَّ غادرناه قاصدتين «القصبة» في جولة في أقدم حي في العاصمة. ثم صحبتني إلى بيت عمها، حيث شربنا الشاي الأخضر المعطر بالنعناع.

*

كانت هذه هي إحدى محطاتي الطريفة والرائعة مع مسعودة. أما محطتي التالية فقد كانت في بغداد:

فقد ارتبطتْ مسعودة بعلاقة صداقةٍ بزميلٍ لنا عراقي يعمل أستاذاً في جامعة الجزائر العاصمة. ثم تطورت العلاقةُ إلى حب، فخطوبة، فزواج. وحين انتهى عقدُ عمله، صحبته في عودته إلى الوطن. وذات يوم التقيتها مصادفةً ومن حيث لم أتوقع.. وكان ذلك في مجلس عزاء.

ما إنْ خطوتُ عتبة البهو المكتظّ حتى وقع نظري على وجهٍ مَيَّزتُهُ من بين كل الوجوه: مسعودة، وهي تلتف بعباءة عراقية لا يظهر منها غيرُ وجهها الحليبي الهادئ، والعينين الحالكتي السواد. تهللتْ وهي تراني، وكانت مفاجأة لي ولها. فسحتْ لي مكاناً ضيقاً إلى جانبها على الأرض المفروشة بالسجاد، فانحشرتُ وصرتُ قطعةً من غابة النساء المتّشحات بالسواد. جلسنا ملتصقتين، نتهامسُ ونتبادلُ الأخبار، غير عابئتين بما حولنا. ثم ران الصمتُ، وكفَّتِ النساءُ عن النحيب واللغو، إذ بدأ المقرئ يعدِّد مناقب الرسول، وكنا نستمع خاشعتين لأن صوته كان مؤثِّراً. أبدتْ مسعودة استحسانها للطريقة، فأيّدتُها، وقالت إنها حضرتْ مثل هذه المجالس وترى أنّ مقرئي المناقب من الرجال أكثر عقلانية من النساء. وقالت إنها ذاتَ مرةٍ شهدت «الملاية» تسرد بأسلوبها المعتاد قصصاً عجيبة عن الأنبياء والرسل ولم تستثنِ واحداً منهم، ابتداءً بسيدنا آدم وانتهاء بالرسول، وبتفاصيل دقيقة وتتحدث عن لسانهم وكأنها كانت تعايشهم، وهذا ـ في رأي مسعودة ـ لا يجوز. وقالت إنّ مثل هذا لا يحدث عندهم، واقترحتْ أن تنظِم هذه الفرقَ نقابةٌ تكون مسؤولةً عمّا يقولون وما يفعلون. وبينما نحن في هذا الشأن إذ حدثت انعطافةٌ، فإذا بالمقرئ ينتقل من مدح الرسول إلى فيض من الدعاء خصّ به المتوفّى. وبعد كل دعاء تردّ عليه مجموعاتُ النساء المتراصات بقولهنّ: آمين. كان الصمت قد عمّ المكانَ، وكان صوته يأتي من مكان ما داخل إحدى غرف البيت، وكلمة «آمين» تتردد من كل صوب، وصرتُ التقط الجملَ التي يقولها وأتمعن فيها، من مثل:

«اللهم ارحم عبدك (...) وخففْ عنه آلام القبر وعذابه»،

«اللهم لا تحاسبه حساباً عسيراً، بل حاسِبْهُ حساباً يسيراً»،

«اللهم اجعل عن يمينه ملاكاً رحيماً وعن يساره ملاكاً»،

«اللهم اجعله من أصحاب الجنة ولا تجعله من أهل النار»،

«اللهم أجزِه مغفرةً منك وأجراً عظيماً».

ثم انتهى إلى قوله: «اللهم اجلسْه على سُرُرٍ مرصوفةٍ وزوِّجْهُ بحورِ عينٍ مطهرةٍ من حواري جنّاتك»، فصاحت النساء بصوت ونفس واحد «آمين». لم أدرِ إلا ونظري يُصَوَّبُ نحو أرملة المتوفّى؛ كانت تجلس مادةً ساقيها، شعثاء تنوء مع لحن الكلمات وتضرب على فخذيها. ثم أدرتُ وجهي نحو مسعودة، فوجدتها هي الأخرى تراقبها. وهنا التقتْ نظراتنا، ويا ليتها لم تلتقِ، فقد ابتسمتْ مسعودة ابتسامةً غامضة، وابتسمت أنا، ثم إذا بها تُنزل طرفَ عباءتها من فوق رأسها تغطّي به وجهها. كنت نعرف أنّ المرحوم عمَّر في الحياة حتى وصل التسعين، وأنه قضى السنوات الخمس الأخيرة مقعَداً مشلولاً فاقد النطق. وبدأتْ مسعودة تهتزّ من تحت عباءتها؛ من ينتبه اليها يظن أنّها كانت تنتحب. أما أنا

فكنتُ عزلاء لا يحميني غيرُ ردائي الأسود الملتصق بجسدي. لقد أخطأ المعرِّي حين قال: «تشاءب زيد إذ تشاءب خالد»؛ فالضحك تسري عدواه بأشد وأقوى، وبخاصة في مثل هذه المواقف. ولم أسْلم من نظراتٍ رمتني بها بعضُ النسوة وهن يبتسمن أيضاً!.

وقبل أن أستأذن مسعودة لأغادر المكان دسَّتْ بيدي ورقةً صغيرة كَتَبَتْها على عجل، وفيها رقم هاتفها، وهي تقول:

ـ «يجب أن تتصلي.. علينا أن نلتقي».

*

لكنّ مسعودة ضاعتْ مني من جديد مع إضاعتي القصاصةَ الصغيرةَ التي كنت أقبض عليها في ذلك اليوم المشهود وهي تلتفّ بعباءة عراقية لا يظهر منها غير وجهها... حتى عثرتُ على مسعودة أمس مصادفةً إذ لمحتها في الشارع تنتظر عند موقف سيارات الأجرة.

قُدتُ سيارتي عائدةً بها إلى الوراء وانحنيتُ لأُسمِعَها صوتي وأنا أناديها.

ـ «هذا يوم السعد يا مسعودة إذْ أحظى بك هَنا».

قالت عاتبةً محتدّة بلهجتها الجزائرية المحببة وهي تجلس إلى جواري:

ـ «ولكِ الحق في قول هذا؟ أما أعطيتكِ رقم هاتفي؟ أين أنت؟»

ـ «أضعته ـ قلتُ لها ـ والله أضعْته.. كان حظي عاثراً ذلك اليوم ـ هل تذكرين»؟ وضحكنا..

ـ «علي أي حال أين وجهتك؟ وأين سيارتك؟»

ـ «ها ها» ـ قالت وهي تهز رأسها ـ، «أما سيارتي فقد سرقوا لنا إطاراتها الأربعة ثم وضعوها لنا فوق الطابوق، في عقر دارنا وفي وضح النهار.. تلزمنا الآلاف لكي نعوِّضها، والأمور ليست كما كانت معنا، لذا أرجأنا ذلك، في الأقل كي لا نُلدغ من الجحْر مرتين. وأما وجهتي فإلى البيت، وإنْ لم أثقل عليكِ».

قلت لها:

ـ «تثقلين عليّ يا مجنونة؟ إنها فرصتي الثمينة كي أعرف أين تسكنين».

قالت:

ـ «في حي الأمجاد»!

شهقتُ حتى كدت أشرق:

ـ «حي الأمجاد؟! أصحيح ما تقولين؟ ومنذ متى؟ أنحن في منطقة واحدة إذن؟ هذا هو اللامعقول بعينه.. وكل هذه السنين، وأنا آخر من يعلم!؟»

قالت مسعودة بأسف:

ـ «ولكن سننتقل من هنا في ظرف أسبوعين فقط بعد أن قضينا فيه سبع سنوات».

قلت: «لماذا هل ضاق بكم»؟!

قالت: «لا أبداً. وجدنا شقة مريحة في شارع حيفا، فيها كل وسائل الراحة. بعنا بيتنا، واشتريناها، واستفدنا من الفرق. وبيني وبينك، هذا الحي الذي كان هادئاً أصبح لا يطاق.. ثم هذا الدويّ الذي يضرب رؤوسنا ليل نهار».

قلت: ـ «ماذا؟ أيُّ دوي؟؟!».

قالت مسعودة والدهشة على وجهها:

ـ «تقولين أيّ دوي؟! هذه الدوّامة الرهيبة التي تطوِّق المنطقة وكأنّ انفجاراً كونياً نزل صوب الكرة الأرضية واستقر فوق منطقتنا ولفّها.. الضجيج لا يهدأ، وبخاصة في ساعات الصباح. ألا يزعجك كل هذا الذي يحدث؟! أما أنا فقد حطّم أعصابي، ولم أعد أحتمل أكثر مما احتملت، لا أنا ولا أولادي، فقررنا الهروب.. قولي بالله عليك ما الذي يجري في حيّ الأمجاد؟؟! وما سبب كل هذا الضجيج؟؟!

بغداد

خطوات لها وقع

محمود سعيد

أكثر من عشر سنين مرت عليها في الغربة، وهي لم تستطع التعود على حرارة الجو ورطوبته. يُغَلِّف جسدُها بطبقة من الدبق تجعلها تتضايق، تتقزز، تستحضر آلام الغربة قسراً. تبدأ الوحدة تنفث سمومها بخبث بطيء، تستحيل ذراتٍ، تصبح هلاماً خانقاً يتفاعل مع هواءِ ماءِ حمّام ساخن يسود كل مكان، تلجأ إليه، يخنقها، يقتل أحلامها الصغيرة في رؤية مكان بارد جديد تسافر إليه. لماذا تقضي الرطوبة الساخنة على الهدوء في نفسها؟ للرطوبة علاقة ما بضيق النفَس، لكن ما علاقتها بضيق النفْس؟ تسحق صدرها بثقل لا يمكنها تحمله. ها هي تلجأ كالعادة إلى الماء البارد لتزيل لا جدار العرق وحسب، بل أيضاً ثقل الرطوبة التي استحالت كآبةً تكاد تزهق روحها.